مراعات الحدود: فتش عن السياسة

بقلم: غسان سلامة ★

■ ليست مشاكل الحدود بالأمر الغريب بين الدول، ولا حتى بين الأفراد. فالحياة الدولية مليئة بالقضايا الحدودية التي تثار وتخبو، بحل أو بغير حل أو بنصف حل. والحياة المحلية حبلى بآلاف القضايا بين العقارات واصحابها. هذا تعدى على ذاك، وذلك بنى على أرض جاره، وهي أيضا تنتهي بحلول، بأنصاف حلول، باشباه حلول أو هي تبقى بلا حل أبدا.

المثير في قضايا الحدود هو توقيت اثارتها، أو القرار بتناسيها. والواقع ان العالم ليس خاليا من حدود دولية لا تثير الشبهات، او الخلافات الدبلوماسية، أو المرافعات القانونية او النزاعات المسلحة. وينطبق هذا الأمر على منطقتنا من العالم، كما على مناطق اخرى، بل على العالم بأسره، وسجل محكمة العدل الدولي في لاهاي مليء بالنزاعات حول أرض أو جزيرة أو جزء من جرف قاري او ما شابه، علما بأن تلك المحكمة لم تنظر الا بالعدد القليل جدا، بل الاستثنائي، من القضايا، لأن نظامها يتطلب ان تتفق الدولتان المتنازعتان على رفع القضية اليها معا قبل ان تبدأ بالنظر فيها.

وتعددت الحروب المحلية والاقليمية بل والحروب العالمية، التي كان عنوانها، ان لم يكن سببها الحقيقي، خلافا على الحدود. فالحربان العالميتان في هذا القرن دارتا حول سيطرة ألمانيا على مقاطعتي الألزاس واللورين الفرنسيتين، والخلاف الصيني - السوفييتي بدأ بانتكاسة أمنية على الحدود بين الجبارين الشيوعيين سابقا. وهذه حال الهند وباكستان في صراعهما على كشمير، والهند والصين في خلافهما الحدودي المزمن. ويتأخر التطبيع الروسي - الياباني بسبب استمرار النزاع على جزر الكوريل، مع ما يعني هذا التأخر من أضرار هائلة على البلدين. اما السيادة على شبه جزيرة يالطا فهي أقامت الدنيا ولم تقعدها بعد بين روسيا وأوكرانيا. وتستمر الحرب في يوغوسلافيا حول تعيين حدود صربيا الكبرى، بينما تتنازع اذربيجان وارمينيا مقاطعة ناغورنو كاراباخ. وفي ذهني، كما في ذهن أي قارىء، أمثلة اخرى كثيرة عن قضايا حدودية مازالت معلقة بين الأكثرية الساحقة من دول العالم. فمن يقول «حدود» يعني ضمنا خلافا عليها في القارات الخمس من العالم.

أما في منطقتنا العربية، فيصعب عليك، بل قد يستحيل، ان تحدد حدودا لا نزاع، فعليا أو ساكنا عليها: فبين المغرب والجزائر قضية حدودية أوقعت في الستينات حربا وخلّفت في القلوب مرارة. وبين المغرب وموريتانيا فضاء صحراوي متنازع عليه، كما هي الحال بين موريتانيا والسنغال وقد فصلتهما لسنة خلت، حرب أخرى. وبين تونس والجزائر مطامح مطمورة في الذاكرة، بينما تتحارب ليبيا مع تشاد من حين الى آخر حول شريط عوزو الشهير. وانفجرت مؤخرا بين مصر والسودان مسألة حلايب المزعجة، في الوقت الذي حصلت مصر على طابا من «اسرائيل» من خلال تحكيم دولي. ولم تنس سوريا قط لواء الاسكندرون، كما انه بين لبنان وسوريا نزاعات حدودية صغيرة ونزاعات على السيادة أكبر وكانت مسألة السيادة على شط العرب، وموقف العراق من اتفاق الجزائر بشأنه، عنوان حرب طاحنة بين بغداد وطهران دامت ثماني سنوات مخلفة قتلى وجرحى بمئات الألوف وخسائر بمئات البلايين.

العدوى

وها ان العدوى تصل الى جزيرة العرب: هنا اتفاق وهناك محاولة اتفاق وهنالك خلاف. فجزيرة ابوموسى، وجزر الطنب في كل بال. والحادثة الحدودية بين قطر والسعودية فاجات الكثيرين. وفي قلوب ابناء الجزيرة مطامح، وفي بعض ذاكرتهم مطامع، وفي أفئدتهم تخوفات من ان تهدأ هنا لكي تنفجر هناك. وما رفض بغداد لتعيين الحدود العراقية - الكويتية من خلال لجنة تابعة للأمم المتحدة الا مثال واحد على استمرار القضايا الملحة وامكانات التسخين الدائمة.

من هنا تقضي علينا الروح الموضوعية بالقول ان مشاكل الحدود عديدة، ملحة، مستمرة معنا الى ما لا نهاية. فحيث هناك حدود، هناك خلافات عليها، إن كان ذلك بين الدول العربية ذاتها، أم بين تلك الدول وجاراتها مثل تركيا وايران، أو هذه أو تلك من دول افريقيا الى الجنوب من الصحراء الكبرى. وتنتمي النزاعات المائية الى هذه الطائفة من الخلافات، إن كان اسمها شط العرب، أم الفرات أم النيل أم العاصي.

أما بين العرب و«اسرائيل» فهناك خلاف، كما يقال، لا على «الحدود» بل على «الوجود». وقد تكون «مسيرة السلام» التي وضعتها واشنطن تهدف اساسا الى تغيير جوهر النزاع على فلسطين من معضلة وجودية الى مسألة حدودية أي الى شرعنة الكيان الصهيوني، والى تطبيع اقامته المديدة بين ظهراني العرب، والى عرض الامور وكأنها خلافات عادية، بين جيران عاديين، لها حلول عادية، بوساطات عادية، في مفاوضات عادية، وتبادل اوراق عادية، وتحديد خرائط عادية، واقامة علاقات عادية، وتسيير عجلة الدبلوماسية العادية... بينما يعلم كل عربي ان هذه المعضلة بالذات ليست عادية، لأنها في جوهرها ليست مسألة حدودية.

أربعة مصادر

اما بين العرب أنفسهم، فالمشاكل الحدودية أسيرة في الاجمال لتعقيدات كبرى من مصادر اربعة:

المصدر الأول بيئوي، جغرافي مفاده ان جل الأرض العربية صحراوية ويصعب بالتالي تحريك الحدود على ظهرها. فكثبان الرمال المتحركة ليست كالجبال الشاهقة الثابتة. وهذه الصعوبة موضوعية، فهي أكثر من حجة عابرة يلجأ اليها هذا أو ذاك من الذين يريدون ابقاء الامور كما هي لأنهم يستفيدون منها.

اما المصدر الثاني فهو اقتصادي؛ فالأراضي العربية، في غير رقعة منها، تزخر في جوفها بالثروات النفطية الكبرى. والواقع ان شركات النفط الاجنبية كانت طوال هذا القرن اكثر الحاحا في تثبيت الحدود من السلطات المحلية، لأنها كانت تسعى في الواقع الى الدفاع عن امتيازات التنقيب المعطاة لها. ولا ريب في ان هذا العنصر يلعب الآن دورا محوريا في النزاعات المفتوحة او المضمرة او المغطى عليها في منطقة الجزيرة والخليج حيث تتركز كميات من النفط والغاز تتجاوز ثلثي الاحتياطي العالمي.

مصدر ثالث لتعقيد النزاعات بين الاطراف العربية مرده الى طبيعة الدول الحديثة وسبل قيامها. والواقع ان الولاء السياسي غالبا ما كان مرتبطا بالقبيلة أكثر مما هو بالأرض. ولعبت البداوة، كما لعب الترحال المستمر، وانقسام القبائل على ذاتها في تحديد ولاءاتها، دورا شديد التعقيد في رسم الحدود. وتوضح اتفاقات العقير الشهيرة سنة ١٩٢٢ هذا الأمر، حيث جرى التنازع بين أطراف ذلك الوقت على ولاء هذه او تلك من القبائل، بل على ولاء هذا أو ذاك من افخاذها، وبالتالي على السيادة على الأرض التي تعتبر ديرة لتلك القبائل والافخاذ. ولا ريب في ان المناطق التي شهدت منذ زمن طويل حياة حضرية لا تنقل فيها ولا ترحال هي أسهل تحقيقا لتبيان الحدود. فالزراعة والصناعة تنشئان ارتباطا أوضح بالأرض وهوية أوضح للأرض، بدلا من هوية القائمين عليها.

اما المصدر الرابع للتعقيد فنجده في عملية قيام الدول وفي الدور الاجنبي في الاسهام في قيامها. هذا الأمر يدفع النخب السياسية في الدول حديثة الوجود الى الدفاع المستميت عن الحدود، لأنه نوع من الدفاع عن الذات، من اثبات الذات، من التأكيد لا على ملكية مساحة

★ استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس

من الأرض بل على وجود الدولة ذاتها في الاسرة الدولية. ذلك ان الدول حديثة النشأة تخاف من ان يؤدي التمادي في التغاضي عن المشاكل الحدودية الى اعادة النظر في وجود الدولة نفسها وهي بعد شابة، طرية العود.

الانتماء العربي

هذه، اذاً، مصادر أربعة لتعقيد المسائل الحدودية بين الأطراف العربية عند حصولها. غير انه في الثقافة السياسية العربية من القيم والمعاني ما يكفي في الاجمال لتجاوز هذه التعقيدات تحت شعار الاخوة والانتماء لجماعة ثقافية (ان لم تكن سياسية) واحدة. ولاشك في ان الضعف والوهن الحاصلين الآن في أسس الانتماء العربي المشترك من شأنهما فتح الباب واسعا أمام قضايا الحدود ومشاكلها المستعصية. ذلك ان انحسار روح الانتماء الى كلٍّ مشترك، يفقد الثقافة السياسية العربية الكثير من مرونتها، ويفقد الحكام العرب القدر الكبير من السماحة والتسامح واحدهم مع الآخر. وتراجع الشعور بالمصلحة العليا المشترك، وهو تراجع يسهل لحظه من المحيط حتى الخليج، يؤدي الى بروز القضايا الثنائية المحلية وتعقيدها والى انعدام القيم الذاتية العربية الآيلة الى تجاوزها ان لم يكن الى حلها تماما.

يبقى الأساس. وهذا الأساس لا علاقة له بالعرب ولا بثقافتهم ولا بهوية حكامهم.. والأساس هو ان الخلافات الحدودية في كل انحاء الأرض أمر عادي للغاية. ما هو غير عادي اطلاقا هو اختيار التوقيت لاثارة مشكلة حدودية بالذات. لماذا يفتح موضوع ويقفل آخر؟ لماذا يحصل اشتباك؟ لماذا يعلن عنه أو لماذا على العكس، يتم التغاضي وتحصل التغطية؟ لماذا ينام هذا الملف الحدودي ويبقى غارقا في سباته والنسيان؟ ولماذا يستفيق هذا الملف الآخر فجأة وتتلقفه الصحف وتنكب على متابعته السفارات ويتلهى به القناصل؟

الجواب ليس حكراً على العرب ولا على دولهم بل هي قاعدة عالمية يزيد عمرها على العقود والقرون من الزمن: القضايا الحدودية ليست في الواقع مهمة في ذاتها ولذاتها الا في النادر من الحالات. فالقضايا الحدودية هي في الواقع ميزان حرارة تقاس به الأحوال السياسية. فالحدود رمز للسياسة، تسخن معها وتبرد معها، وتشكل معياراً لجودتها أو لسوئها. فإن شاء أحدهم ابلاغ جاره عدم رضاه، وتّر الوضع على حدودهما المشتركة، وإن شاء آخر تغليب حسن الجوار تغاضى عن ألف انتهاك وألف تجاوز. وما أدل على ذلك الا مسألة حلايب بين مصر والسودان، فهي تنام عندما تصفو العلاقات بين القاهرة والخرطوم وتنفجر مجددا في الأحوال التي تكون فيها سياسة مصر في واد وسياسة السودان في واد آخر. وهذه في الواقع حال مختلف القضايا الحدودية.

فكل الأناشيد الوطنية تقرر مبدأ الذود عن الأرض، ولكن الناس ليسوا دوما مقبلين على الموت دفاعا عن رقعة من المساحة، أو عن احدى القرى النائية. وحكامهم ليسوا متأهبين دوما لشن حرب في سبيل كيلومتر مربع استولى عليه الجار. وقضايا الحدود تبقى نائمة الا عند تسيّسها. وعندما تسيّس تستفحل. وعندما تستفحل يسقط بسببها القتلى، وعندما يسقط القتلى، عليك، عزيزي القارى، ان تنسى الحدود، وتدع الخرائط على الرفوف، والاتفاقات والمعاهدات في الدرج والخزانة، وان تنظر نحو السياسة. فالحدود ميزان حرارتها، تسخن بسببها وتبرد بفضلها. ■■